محمد علي آذرشب*

من رجال التواصل الإيراني - العربي

محمد صالح السمناني

١٢٩٧ - ١٣٩١هـ / ١٨٨٠- ١٩٧١م

(الصفحات ١٨٣ - ٢٠٤)

ملخّص

الشيخ محمد صالح الحائري من رجال التواصل الإيراني العربي. اهتمّ بأحداث عصره، وكانت له نظرة مقاصدية مستقبلية في أعماله. رأى أن سبب تمزّق الأمة يعود إلى عاملين: العامل الطائفي والعامل القومي. في مجال مواجهة الحالة الطائفية اهتمّ بتقديم مدرسة آل البيت على المستوى النظري والعملي بشكل يتناسب مع رسالية هذه المدرسة، ثم حين سمع بتأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة هبّ للاتصال بالدار وبالشخصية المصرية الأولى في هذه الدار وهو عبدالمجيد سليم، فجرت بينهما مراسلات كان من أهمّها المشروع الذي قدّمه للتصالح بين السنة والشيعة، وبين الشيعة الاثنا عشرية والشيعة الزيدية، ويقوم المشروع بالفصل بين مفهوم الخلافة والإمامة. ومن أجل إزالة الحواجز القومية بين الايرانيين والعرب عمل ـ كما عمل قبله كبار الشعراء الإيرانيين ـ بإنشاد القصائد العربية، ليؤكد أن هذه اللغة هي لغة الحضارة التي تجمع المسلمين في دائرتها. وشعره تركز على مدح الرسول وآل بيت الرسول(ص) باعتباهم المحور المشترك الثقافي والعلمي والعاطفي بين المسلمين.

وفي قصائده ارتفع إلى مستوى الشعراء القدماء في فخامة اللفظ وابتكار المعاني والخيال.

---

* - أستاذ في جامعة طهران.

العلامة الشيخ محمد صالح الحائري المعروف بالعلامة السمناني، من أهالي مازندران شمال إيران، ولد في كربلاء سنة ١٢٩٧هـ فهو مازندراني أصلاً وكربلائي (أو حائري) مولدًا، وسمناني مسكنًا على ما سيأتي.

بلغت مؤلفاته من كبارها وصغارها ثلاثمائة تقريبًا.

درس مقدمات العلوم ثم متون الفقه والأصول على يد والده، ثم على يد أساتذته في كربلاء والنجف الأشرف. وبعد ١٢ عامًا من الدراسة الجادّة المتواصلة هاجر إلى موطنه الأصلي مدينة بابل سنة ١٣٢٤هـ، فاستقبله أهالي المدينة بحفاوة. اشتغل فيها بالتدريس والدعوة.

وحدث أن صدرت من الحكومة قرارات رأى فيها العلامة خطرًا على الدين فنهض لمعارضتها، وألقى الخطب الحماسية في إدانتها، وكان ذلك في زمن رضاخان (أبو الشاه الأخير)، فألقي القبض عليه، وأخذ مخفورًا إلى طهران، وبقي في زنزانة رضاخان تسعة أشهر، ثم صدر قرار نفيه إلى مدينة سمنان.

وبعد انتهاء مدّة نفيه آثر البقاء في سمنان لما رأى من حاجة المدينة إليه، وظلّ مقيمًا فيها حتى وفاته سنة ١٣٩١هـ.

يظهر من مؤلفاته أنه تضلّع في الفقه وأصول الفقه والفلسفة وشارك في الأدب والشعر، ونظم بالفارسية والعربية.

ويظهر من نشاطاته أنه اهتمّ بتقديم الخدمات الاجتماعية للناس، والاندماج بهم وتبنّي مصالحهم.

ويبدو ممن مدحه ورثاه من الشعراء الإيرانيين أنه كان على صلة وثيقة بالساحة الأدبية، وكان صديقًا للشعراء الكبار يجلّونه ويحترمونه حتى من لم يكن معروفًا باتجاهه الديني.

فقد مدحه الشاعر علي اسفندياري المعروف بنيمايوشيج بقصيدة من خمسين بيتًا،

ورثاه الأستاذ جلال الدين همائي بقصيدة مطلعها بالعربية:

يا لنا من فقد شيخ صالح كان في عقد النهى درّ ثمين

ثم يواصل القصيدة على نفس الوزن والقافية بالفارسية، وكأنه أراد أن ينساق مع تضلّع العلامة السمناني بالعربية والفارسية.

مجالات نشاطاته العلمية والأدبية والاجتماعية إضافة إلى حياته الخاصة التي تميّزت بشهادة كل من يعرفه بالبساطة الشديدة والابتعاد عن زخارف الدنيا وفضول العيش، ذات دلالات واضحة على أن الرجل كان متحررًا من ذاتياته وأنانياته، وكان يعيش من أجل مثل أعلى كبير.

هذا هو الذي جعل منه رجلاً يطمح إلى أن يبحث عن المشتركات بين المسلمين ودفعه إلى أن يرتبط بدار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، ويكتب إليهم ويراسلهم باستمرار، كما دفعه لأن ينظم الشعر بالفارسية والعربيّة، ليواصل مشروع الأدباء الكبار من أمثال حافظ الشيرازي وسعدي الشيرازي في توأمة الفارسية والعربية.

تجاوز الإطار الطائفي

ارتباط الشيخ السمناني بدار التقريب له دلالاته الحضارية. فالإنسان المسلم يحمل ثقافة الحياة، لأن الإسلام ليس إلا دعوة الحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ والحياة في الجسم الحيّ تقتضي وحدته العضوية، أي ارتباط أجزاء الجسم عضويًا مع بعضها «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

وثقافة الحياة هذه تجعل المسلم حيًا وإحيائيًا. تجعله حيًا أي تخرجه من ظلمات الذاتية والأنانية، من الانغماس في أوحال الحياة الغريزية الهابطة، إلى آفاق الأهداف

الكبيرة، ومن الحركة حول المتطلبات البهيمية، إلى الحركة التصاعدية نحو الكمال.. وبالتالي نحو الكمال المطلق.. نحو الله سبحانه.

وحين يخرج «المسلم الحي» من شرنقة ذاته يتجه إلى الآخر ليحييه، ولذلك نرى المتحررين إحيائيين، ومن أمثالهم في عالمنا المعاصر: **السيد جمال الدين الأسد آبادي (الأفغاني)، وعبد الرحمن الكواكبي، وعبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، ومحمد باقر الصدر، والإمام روح الله الخميني، وأبو الأعلى المودودي، وإقبال اللاهوري.** وغيرهم كثير ممن توفاهم الله.. ومن الإحيائيين الأحياء أيضًا كثيرون يقفون كالطود الأشم أمام عواصف الإماتة التي تهبّ على عالمنا الإسلامي من كل حدب وصوب، ليحافظوا على بقايا حياة الأمة المغلوبة على أمرها، وليعيدوا إليها الحياة كاملة، كي تستعيد دورها الحضاري على ظهر الأرض.

ومن الملاحظ لدى كل هؤلاء الإحيائيين أنهم واجهوا عقبتين أساسيتين في الأمة تشكلان ثغرتين ينفذ منهما الأعداء إلى الجسد الإسلامي، وهما العقبة الطائفية، والعقبة القومية.

العقبة الطائفية وإن كانت تعود إلى إرث الماضي، لكنّ المشكلة في طريقة مواجهة هذا الإرث، من المفروض أن الأمة وهي تعيش ظروف التطورات العالمية المدهشة، والتحديات الهائلة، أن تتعالى على هذا الإرث وتتجاوزه، لكن ضمور «الحياة» في الجسد الإسلامي بسبب التجهيل والإذلال والتمزيق والهزائم النفسية جعل من هذا الإرث الطائفي عقبة كأداء ذات آثار سيئة على واقع المسلمين ومستقبلهم.

ولذلك كان الهمّ الأول للإحيائيين في عالمنا الإسلامي تجاوز الحالة الطائفية، والاستجابة لكل نداء يدعو إلى وحدة الأمة المسلمة بمختلف مذاهبها الإسلامية.

كانت هذه خلفية اندفاع العلامة السمناني لأن يرتبط بدار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة.

لقد سرّه من الأعماق ما رأى في مجلة *رسالة الإسلام* فكتب إلى الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر آنذاك يعرب عن مشاعره تجاه المجلة وتجاه حركة التقريب، وقدّم مشروعًا فيه ريادة وشجاعة ومعرفة بمواطن الخلاف والاتفاق وقدرة علميّة على تقديم الحلّ.

ويشير في بعض مقاطع رسالته إلى أن المشروع الذي يطرحه مستلهم من مدرسة آل البيت (عليهم السلام) التي وضعت وحدة الأمة الإسلامية وتجنيبها الخلافات فوق كل اعتبار.

ولأهميّة مشروع العلامة السمناني، وما احتواه من طرح بديع ننقل مقتطفات من رسالته إلى الشيخ عبدالمجيد سليم :

مقال الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني نشر في مجلة *رسالة الإسلام* تحت عنوان:

إلى إخواننا المسلمين [٢]

وجاء فيه:

«كنت أسرح النظر فيما لديّ من أعداد مجلة *رسالة الإسلام* التي تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية والحق - والحق أقول - إن جملة ما فيها لهو منتقى الجُمان، من مشتهى العلم والأدب، وملتقى اللؤلؤ والمرجان، من منتهى الفضل بلسان العرب.

ولقد راقني في العدد الأول ... بيان حضرة صاحب الفضيلة العلامة الأكبر شيخ الإسلام الشيخ عبد المجيد سليم في تقريب مذاهب هذه الأمة الواحدة، وتأليف علومها وثقافاتها ، وإقامة صرح الإيمان بينها ليكون المسلمون جميعًا صفًا كأنهم بنيان مرصوص...»

---

٢ - العدد ١٢ ــ صفحة ٤٠٣.

وحول وجوب الرجوع إلى الجوامع الأربعة عشر في الاجتهاد قال:

فيجب على المجتهدين الجمع بين طرق الصحابة المدون معظمها في الصحاح الستة لأهل السنة، وبين طرق أهل البيت المدون أكثرها في الجوامع الثمانية للإمامية مع النقد والتحقيق في معرفة رجال السند والاستنباط الدقيق في الدلالة واستفراغ الوسع فيهما، وفي أقسام العلاج بين المتعارضين، وتبصرة الفكر، وتمرين القوة بالإحاطة على فتاوى أصحاب المذاهب الخمسة.

وبذلك يكمل الاجتهاد المبني على الفحص البالغ في النقليات، وعلى تشخيص مادان به الأولون السابقون المقربون في العقليات والفطريات، ولا يجوز الاكتفاء بأحد الطريقين عن الآخر، حتى أن المتقدمين كانوا يكتبون عن كل محدّث، بل كانوا يرحلون إلى شقة نازحة لطلب حديث واحد كيلا يشذ عنهم شيء من علم الرسول (صلوات اللّه وسلامه عليه)، فإذا فعلوا ذلك وسلكوا السبيلين وتلقّوا علم اللّه تعالى من كلتي يديه المبسوطتين زالت الوحشة عما بين المعشرين، وحصل التقريب والتعارف بين القبيلتين أصولاً وفروعًا، وكل ذلك من غير أن يتشيع سني أو يتسنن شيعي».

وعن طريق التصالح بين السنة والشيعة في الإمامة والخلافة قال:

فإن ملاك التسنن الخالص عن الزوائد التعصبية إنما هو صحة الخلافة الملّية لا إنكار الإمامة السماوية المنصوصة، ولا الإعراض عن علوم أهل بيت الرسالة ورواياتهم وفتاواهم، كما أن ملاك التشيع الكامل اعتقاد الإمامة المنصوصة لعلي والأئمة الأحد عشر من ولده وافتراض طاعتهم في العلوم الدينية لا إبطال خلافة من قام بمصالح الأمة مع العدل والزهد والأمانة على بيت المال، لإمكان رضا الإمام المنصوص بها، ولو لصلاح الوقت وخشية الفتنة. وقد كان الأمر في الصدر الأول على هذا المنوال، فلم يكونوا يشترطون في صحة الخلافة الجمهورية إنكار الإمامة المنصوصة الخاصة الإلهية لأهلها، ولا في الإمامة بهذا المعنى المتقوم بالنص والعصمة والمعجز إنكار صحة الخلافة

للقائم بها دون الإمام برضا الأمة أو برضا الإمام، سيما إذا عهد النبي (صلوات اللّه وسلامه عليه) أن لا يقوم الإمام المنصوص بها، ولا ينهض لها حتى يبايعوه ويأتوه طائعين، وإنما ألقي البأس والخلاف بينهما بعد ذلك، فما روعي طريق التسالم بينهما، فكانت عاقبته أمر المفرقين بينهما في الأمة خسرًا.

لكن مع ذلك ظهر في كل عصر جماعة من السنة والشيعة حفظوا السلم والوحدة بين المنصبين من غير أن يكذّب أحدهما الآخر لعدم الاصطكاك والاحتكاك بينهما ذاتًا إلا بالعرض والغرض، وإلا فجواز الجمع بينهما في شخصين وعدم امتناعه بديهي، كما أن وجوبه مع رضا الإمام وتسليمه الخلافة لغيره ظاهر، **سيما في مثل هذا العصر الذي يحرم فيه إلقاء الخصومة بين المنزلتين، ونقض الوحدة بين أمة لا إمامهم حاضر ولا أحد الخلفاء من الصحابة حي.**

هذا مجمل الفكرة في بيان الأمر الثالث المعزز للأمرين الذي هو النمرقة الوسطى، وسواء الكلمة العملية الأخرى بعد سواء الكلمة العملية الأولى، وتمام هذا الأمر وكماله وضياؤه ومصباحه نصب كرسي لتدريس فقه أهل البيت في مصر، وآخر لتدريس عقائدهم الكلامية، فإنهما مرآتان تامتان مطابقتان لعقائد الخلفاء الراشدين والصحابة المنتجبين وفقههم وسيرتهم وهداهم وبيناتهم وعدلهم وزهدهم وأمانتهم وعباداتهم ومراوحتهم بين جباههم وركبهم ورسوخهم في العلم وغوصهم في أنوار الرسالة. فمن أراد أن ينظر إليهم فلينظر في هاتين المرآتين، وليوقد هذين المصباحين، وليقم هذين العمودين، وليشيد أركانهما بعلوم سائر الأعلام الأفذاذ المخلصين من أئمة المذاهب الأربعة وخُلّص أتباعهم...

ثم يستعرض سيرة أئمة أهل البيت وسعيهم لتعليم الناس أدب التقريب بين الإمامة والخلافة، ويذكر رواية ردّ فيها الإمام علي بن الحسين زين العابدين(عليه السلام) على نفر من متشيّعة العراق نالوا أمامَه في الخلفاء الثلاثة، ويقول:

«فليتعلّم معشر الشيعة وإخوانهم السنة طرز الجمع والتوفيق بين المنزلتين، فهل ترى الإمام السجاد ينتقص بهذه الشهادات منزلة نفسه من الإمامة؟! أم هل يمكن أن ينظر إلى خلافتهم التي كان عمدة نظر أولئك النفر العراقيين القدح فيها مع هذه الحجج إلا بنظر الصحة والرضا؟! فما بالنا نتعارك في ذلك، هذا بإنكار النص، وذاك بإنكار صحة الخلافة، إذا لم يتوقف صحة الإمامة على بطلان الخلافة، أو صحة الخلافة على بطلان الإمامة وأمكن الإقرار بصحتهما والاعتزاز بهما معًا لكلا المعشرين؟!!

الشيعة يمكنهم القول بصحة الخلافة بما أشرنا إليه من الاقتداء والتسليم، ومن الوفاء بعهد الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) إليه بالصبر والإمساك والاكتفاء بمنزلة الإمامة والمحافظة على ما يعجز عنه غيره من إقامة الحجج والمعجزات على حقانية الرسالة الختمية ودين الإسلام على الملل، وتنجيز عدات النبي (صلوات اللّه وسلامه عليه)، وغير ذلك مما لا يجري إلا على يد نبيّ أو وصيّ نبي مضافًا إلى حفظ اتصال سلسلة الأوصياء في الصفوة من آل محمد(صلى الله عليه وآله)من لدن شيث إلى المهدي الموعود.

كما أن أهل السنة يمكنهم القول بالإمامة المنصوصة لعلي والأئمة من ولده، وبأن الصحابة لم يخالفوا النص، وإنما جوزوا تأخير العمل بالنص لصلاح الوقت ومراعاة ضعف أحوال الناس، ولم يبطلوه ولا كذبوه، ولا تركوا العمل به رأسًا، فتلقوا باجتهادهم النص واجبًا مؤقتًا بوقته المأمون عن الفتنة ونفوذ أعداء الإسلام في أمر الأمة في أول المصيبة العظمى، وقبل اتساع دائرة الفتح والنصر في البلاد، وعلوّ كلمة اللّه في المشارق والمغارب، ولم يتلقّوا النص واجبًا مطلقًا منجزًا مقارنًا لوفاة الرسول (صلوات اللّه وسلامه عليه)، كيف وقد أخبر عليًا بما سيكون بعده، وأوصاه بترك القيام والخلاف حتى تجتمع عليه الأمة بطباعهم، وأنهم سيجمعون عليه وسينصره بالعراق مائة ألف سيف.

وبهذا القول ترضى الشيعة ولا يكون على إخوانهم السنة فيه ضرر، ولا في تركه

والجدال فيه أقل فائدة، كما أن القول بصحة الخلافة من الشيعة وعدم كونهما عدوانًا ترضي أهل السنة، ولا يكون على إخوانهم الشيعة ضرر ولو مثقال ذرة، فقد علموا أن الأئمة (عليهم السلام) نهوهم عن انتقاص الخلفاء (رضي اللّه عنهم)، وأمروا بوجوب تعظيم شأنهم ومؤازرتهم على إعزاز الإسلام وتوحيد الكلمة.

وأما اختلاف الرأي في ابتداء الأمر في تعيين الأمير والخليفة ، أو في وحدته وتعدّده، أو أنه في أي قبيلة، فلم يكن خلافًا منهم في الإمامة ولا تكذيبًا لها، ولم يخطر ببالهم يومئذ أن تعيين القائم بالأمر مضادة لأقوال الرسول (صلى الله عليه وآله) ومشاقة للّه سبحانه وله...

وحول التصالح بين الإمامية والزيدية يقول:

وقد كادت هذه الخلافة المليّة التي لا تزاحم الإمامة ولا تكذّب النص، تشبه الإمامة التي أسسها الزيدية، المبنية على الخروج بالسيف لإقامة العدل وإدارة الملك وإصلاح المجتمع ونحو ذلك، ويكفي في هذا النحو من الإمامة ما قررناه في تصحيح الخلافة من كونها أمرًا سائغًا عقلاً مباحًا غير محظور ولا ممنوع من نبي أو وصي نبي، أو نائبه الخاص، إذ لا مانع من القيام برياسة عامة عادلة لإعلاء كلمة اللّه، لئلا تكون للأعداء والمتآمرين فرصة يبادرون فيها إلى تملك معاقلهم، واستعمال بلادهم، ويطمعون في تفتيت أعضادهم، وتشتيت جامعتهم.

ولو أن الزيدية قعدوا بعد زيد عن ذلك، لم يكن اليوم وما قبله لهم دولة ولا سلطان، فكم من دولة إسلامية تشكلت لهم بهذه الإمامة التي أسسوها واستفادوها من قعود الأئمة المنصوصين المعصومين عنها فضلاً عما بعدهم، حتى أنهم وفّقوا لتشكيل دولة عظمى في بلاد طبرستان كدولة أبي محمد الحسن بن علي الأطروش وأقرانه، وهو - مع أنه كان شيعيًا اثنى عشريًا له كتاب يثبت فيه إمامة الأئمة الإثنى عشر بالنصوص المتواترة - تولى إمامة الزيدية وروّج أمرهم وطريقتهم لإحقاق حق أهل البيت بأي اسم ورسم...

ولقد أجاد الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان المطلع المتبحر الخبير في كتابه *الفصول* وهو فصول من أماليه ومجالسه جمعها تلميذه العظيم علم الهدى السيد المرتضى الموسوي، وهذا الكتاب مخطوط عندنا منه نسخة قديمة، فقد جمع بين الإمامتين، وصالح بينهما على نحو ما أدت إليه فكرتنا بين الإمامة والخلافة قبل النظر إليه.

قال السيد المرتضى فيه ما نصه: «حضر الشيخ، أيده اللّه، بمسجد الكوفة، فاجتمع إليه من أهلها وغيرهم أكثر من خمسمائة إنسان، فانتدب رجل من الزيدية أراد الفتنة والفساد، فقال: بأي شيء استجزت إنكار إمامة زيد بن علي؟ فقال له الشيخ: قد ظننتَ عليّ ظنًا باطلاً، وقولي في زيد لا يخالفني عليه أحد من الزيدية فلا يتصور مذهبي في ذلك بخلاف لهم، فقال الرجل: ما مذهبك في إمامة زيد بن علي؟ فقال له الشيخ: أنا أثبت من إمامة زيد ما يثبته الزيدية، وأنفي من ذلك ما تنفيه. فأقول: إن زيدًا كان إمامًا في العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنفي عنه الإمامة الموجبة لصاحبها العصمة والنص والمعجز، وهذا مالا يخالفني عليه أحد من الزيدية ، فلم يتمالك جميع من حضر من الزيدية أن شكروه ودعوا له وبطلت حيلة الرجل فيما أراد من التشنيع والفتنة» انتهى...

وإنما حدثت الأبحاث حول الإمامة والخلافة بعد ذلك تعصّبًا، وإلا فربُّ الإمامة وربيبها وربّ الخلافة وربّانها كانا متسالمين لم يسمع ولم ير من أحدها هدم أساس منزلة صاحبه بمنزلة نفسه، بل اجتمعا على نقطة سواء، وتوازرا على هدف واحد بمنزلتين أحدهما إلهية والأخرى خَلْقيّة.

ولو فرض على خلاف الواقع أن الأمر لم يكن على وجه السلم والوحدة، وجب على زعماء العلم والملك ستره عن الأغيار، وأن يقولوا لا خلاف بين الأمة في منزلة العترة ومنزلة الخلفاء، وكل عندنا على كرامته المنصوصة أو المليّة...» (انتهى ما نقلنا من مقال العلامة السمناني).

ملخّص مشروع العلامة السمناني في سبيل تجاوز العقبة الطائفية

١ ـ لا بدّ للعالم الديني (وهذا يتبين من سيرته) أن يكون منفتحًا على مجتمعه، مدافعًا عن كرامة أمته وعزّة رسالته، ومتحرّرًا من ذاتياته، عندئذ تكون نظرته إلى الدين حضارية ومن ثمّ تقريبية.

٢ـ الدعوة إلى رواج المدرسة السنية أصولاً وفروعًا عند الشيعة ورواج المدرسة الشيعية أصولاً وفروعًا لدى أهل السنّة مع احتفاظ أصحاب كل مذهب بمذهبه، وذلك لإحلال التعارف بين الفريقين، ولتزول الأوهام والشبهات عندهم.

٣ـ ليس على المسلم أن يقبل مقالات المتكلمين القدماء، ولا على المذاهب التي أجبروا في ظرف من الظروف على اعتناقها في العقائد أو في الفقه.

٤ـ طريق التصالح بين السنة والشيعة في الإمامة والخلافة هو التفريق بين مبحث الإمامة باعتباره منصبًا إلهيًا وبين مبحث الخلافة باعتباره مسؤولية مليّة (أي مسؤولية إدارية سياسية).

٥ـ كان علماء الشيعة على مرّ العصور يدرّسون المذاهب الخمسة لكل طلاب العلم من المسلمين، وكان السيد مهدي بحرالعلوم يدرّس المذاهب الأربعة في الحجاز لأكثر من سنة، وهذه السنّة يجب أن تتواصل لا عند الشيعة فحسب بل عند السنة والشيعة، ولذلك يقترح العلامة السمناني على شيخ الأزهر (ويسميه شيخ الإسلام) تأسيس كرسي للمذهب الشيعي في الأزهر.

٦ـ ليس معنى قوله تعالى: [وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ] تأييد الاختلاف، وهنا يستدل العلامة السمناني بالقرآن ليثبت أن الآية تذمّ الاختلاف. ولعلّ العلامة ـ رحمه الله ـ فاته أن الاختلاف غير الخلاف، لكنّ حرصه على نفي النزاع أدّى به إلى ما ذهب إليه.

٧ـ بنفس أسلوب المصالحة بين السنة والشيعة في مسألة الخلافة والإمامة تطرّق إلى المصالحة بين الإمامية والزيدية، فالإمامية يثبتون لزيد ما يثبته الزيدية لإمامهم من

علم وزهد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وينفون عن زيد ما ينفيه الزيدية عن إمامهم وهي العصمة والنص والمعجز.

تجاوز الإطار القومي

بداية نذكر أن الشيخ السمناني «فقيه» و«منفتح» و«يعيش آلام أمته وآمالها». والفقهاء من هذا القبيل هم أيضًا شعراء أو من متذوقي الشعر على مستوى رفيع.

نرى ذلك بوضوح لدى كبار فقهاء الأمة على اختلاف مذاهبهم، من أمثال: الشريف الرضي، والشريف المرتضى، وابن حزم الظاهري، وابن داود الظاهري، وجمع غفير من فقهاء الشافعية، بل وجمع غفير من الفقهاء المعاصرين أمثال الإمام الخميني والإمام الخامنئي والعلامة الطباطبائي والعلامة فضل الله.. ومن لم يكن شاعرًا فإنه على مستوى مرموق في تذوق الشعر الفاخر.

ولعلّ ارتباط الفقه بالشعر يعود إلى أن الفقيه يستند في استنباط فتاواه إلى القرآن والسنة، وهما على مستوىً راق من الأدب، ولعله يعود إلى أن الذوق الجمالي الرفيع له دور في استنباط أحكام الشريعة، وربما كان السبب يعود إلى ما عند الفقهاء من حالة عرفانية (صوفية) جعلتهم يرتفعون إلى عالم فوق هذا العالم المحدود الضيق، وهذا الارتفاع مقدّمة لتفتق الشعر على لسان صاحبه.

هذه الخلفية الأولى لشاعرية الشيخ السمناني، وثمة خلفية ثانية هي توجّه الحضاريين الإيرانيين من ذوي الأصالة إلى الارتباط بدائرة الحضارة الإسلامية عن طريق اللغة العربية شعرًا ونثرًا.

اللغة العربية وآدابها أصبحت بعد أن تشرفت الجزيرة بالإسلام لغة حضارة بعد أن كانت لغة قوم من الأقوام. وهذه الصفة الحضارية للغة العربية هي التي جعلتها لغة الشعوب التي دخلت دائرة الحضارة الإسلامية، وجعلت العلماء من مختلف القوميات

يخدمون هذه اللغة نحوًا وصرفًا وبلاغة ومفردات.

أصحاب التوجه الحضاري من الإيرانيين اهتمّوا بالتواصل بين العربية والفارسية، واهتمّوا أن تكون لهم مشاركة باللغة العربية إلى جانب اللغة الفارسية، ليركّزوا انتماءهم إلى دائرة الحضارة الإسلامية. هذا ما نشاهده عند كبار الشعراء الإيرانيين من أمثال سعدي وحافظ ومولانا جلال الدين و... العلامة السمناني في هذا الاتجاه اهتم بالأدبين العربي والفارسي معًا.

في الأدب الفارسي أبدع أيّما إبداع حين ترجم معاني سور القرآن بأجمعها شعرًا على وزن المتقارب، وهو وزن شاهنامة الفردوسي . وله ديوان شعر بالفارسية والعربية ونقف عند شعره العربي.

وقفة عند شعره العربي

يقف الإنسان مشدوهًا أمام القصائد العربية للشيخ السمناني، لما فيها من طول نفس، ولما ارتفعت فيه إلى مستوى شعراء العربية الكبار، فهي في ألفاظها فخمة وموسيقاها عذبة، وخيالها بارع، وتنتهج أساليب الشعر العربي القديم وهذه نماذج منها.

نونية العجم

من قصائد الشيخ السمناني قصيدة «نونية العجم في مدح سيد العرب والعجم محمد رسول الله(ص)». وهي في ٩٤ بيتًا. ومطبوعة في (ديوان الأدب/ ص ١٨ وما بعدها) والقصيدة تحتاج أكثر أبياتها إلى شرح لغوي وأدبي لتقريبها إلى الأفهام. ولذلك أختار منها ما تيسّر لفظه ومعناه . من ذلك قوله:

طه رسول الله خاتم رسله ومهيمن الأنوار في التكوين
المصطفى في العالمين محمّد هو مالك الدنيا ويوم الدّين

● محمد علي آذرشب

لله أمّـــــيٌ أقـــــام مبيّنًـــــا ... فحـــوى كتـــاب للعلـــوم مـــبين
يـــا طينـــةً للقـــدس لا هوتيـــةً ... بيمينـــــها ملكـــــوت علّـــــيين
جـــسد سمـــاويٌ يربّـــي الرســـل في ... أرواحهـــا مـــن جـــسمه المكمـــون
قـــد شُـــرّب الأنـــوار كـــل عروقـــه ... وزلال صـــــفوة كـــــوثر ومعـــــين
بلـغ العلـى بكمالـهِ كـشف الـدّجى ... بجمالـــــه بـــــالمطلع الميمـــــون
حسنت جميـع خـصاله صـلّوا عليـه ... وآلـــــه في الفـــــرض والمـــــسنون
في الـــــسبع والعـــــشرين مـــــن ... رجـــب المرجـــب مبعـــثُ الياســـين
حـــاز الكمـــال وكـــلّ فـــضل روحـــه ... قـــد دانـــت الـــدنيا لـــه في الـــدين
خـــرق الأثـــير بنعلـــه وبُراقـــه ... نـــور الرَّصـــين يحـــل كـــل رصـــين
ديـــن علـــى كـــل الملـــوك ولاؤه ... لـــولاه لا كـــانوا قـــضاة ديـــون
ذا بعـــض محمـــود المقـــام لجـــسمه ... مـــاذا خزانـــة روحـــه المخـــزون؟
مَلَـــك يهـــاب حمـــاه في جبروتـــه ... حـــتى الملائـــك مـــا ســـوى المـــاذون
يكـــسوه نـــور الله جـــلّ جلالـــه ... حلـــل الأمـــان لعتـــق كـــلّ أمـــين
والكبريـــاء ردائه وكـــذا البـــهاء ... إزاره مـــــن ظـــــاهر وبطـــــون
الله أكـــبر مـــن مكارمـــه الـــتي ... كـــبرت معانيهـــا عـــن التبـــيين
اللامعـــــات كـــــأنجم درّيـــــة ... والـــسّاطعات كـــسمط ذات ثمـــين
كخـــضوعه وخـــشوعه وحيائـــه ... ووفائـــه وخلوصـــه في الـــدّين
ورضـــائه وقـــضائه ومـــضائه ... وإبائـــه وحبائـــه الممنـــون
سمـــح المقالـــة نزرهـــا ذو منطـــق ... فـــصل ويـــوجز جامعًـــا لفنـــون
وذوائـــب لـــو نمّ منـــها شـــعرة ... في العـــرش طأطـــا مـــشرقًا بمتـــون
حـــسدت وعـــين الله تحـــرس عينـــه ... مـــن أن تـــصاب بحاســـد وعيـــون
يفتـــرّ ضـــحكًا عـــن ســـنا بـــرق لـــه ... ســـنّ يـــروق عـــن اســـتياك ســـنون

قــل يــا نــضيد الــدّر إنّــي دونــه ... قــل أيهــا الفــم كــلّ بحــر دوني
صــدر عــريض كالمرايــا مــستر ... فيــه لكــنز الله كــلّ دفــين
عنــق كــإبريق صــفا مــن فــضّة ... ســبكت مــع العقيــان للتحــصين
بــك يــا رســول الله لــذت مــؤمّلاً ... ولأنــت بالآمــال غــير ضــنين
خــذها إليــك مــديح عبــد صــالح ... لــك ســائل يرجــو صــلاح شــؤون
فيــك ابتــدات لرفــع كــلّ ملمّــة ... وبك اختتمــت لنــصب بــاب الــدين

البقيعية اليثربية

وهي ١٢٦ بيتًا «في مـديح الأئمـة الأربعـة علـيهم الـسلام ووصـف أبـرار شـيعتهم، واستنهاضهم لرفع المنع عن الحج في سنة ١٣٦٢هـ» والمقصود أئمة آل البيت المـدفونين في البقيع وهم: الحسن بن علي، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي البـاقر، وجعفـر بـن محمد الصادق (عليهم السلام).

البقيعية اليثربية

سَــلْ بــانَ حــرّةَ واقــم وبقيعَهــا ... هــل ردعُ ريم الجــزع طيّــب قيعهــا
ولُمى مَن ارتشفت حصاها فاجتلـت ... فكــأن روت عــين الحيــاة نقيعهــا
كحليّــة برشًــا كــأن خطّــت بهــا ... أقــلام أهــداب المهــا توقيعهــا
لله قيعــــان الحجــــاز وطيبــــة ... وظبــاء كثبــان تــديم رتوعهــا
إن جــنّ حندســها تجــد وجنــاتهم ... أقمارهــا والأنمــلات شموعهــا
والشمس تستجدي ضـياء وجـوههم ... وطلــوع غــرّتهم يفيــد طلوعهــا
كــانوا لــدى محــل المجــادب غيثهــا ... ولــدى الكتائــب ليثهــا وقريعهــا

● محمد علي آذرشب

تحيـــي الليـــالي بـــالهجود عيـــونهم ... مـــستيقظات لا تـــذوق هجوعهـــا
وصـــدورهم أزّت أزيـــز مراجـــل ... وأطـــار خـــوف الله عنـــهم روعهـــا
ولـــئن دعـــوا لـــشهادة لم يكتمـــوا ... أو أودعـــوا الأســـرار مـــا لتـــذيعها
لا يشهدون الزور بـل قـد أعرضـوا ... عـــن كـــل لغـــو كـــارهين شـــيوعها
والـــذكر إذ يتلـــى يخـــرّوا ســـجّدًا ... كـــادت جنـــوبهم تفـــت ضـــلوعها
ولو أن حادي النّـوق تحـدوا بـاسمهم ... طـــارت وقطعـــت الـــبرى ونـــسوعها
هـــم خيرة الأوتاد تلقـــى خضرها ... فيهـــم وشمـــعون الصفا ويسوعها

ويشكو من منع الحجاج الإيرانيين من التوجه إلى الحرمين الشريفين وزيارة أئمة البقيع آنئذ:

يا سادتي أنّـا منعنـا عـن زيـارتكم ... فقومـــوا واصـــحبوا ممنوعهـــا
قد حيل بـين الكعبـة البيـت الحـرام ... وبيننـــا لـــنحجّ أو نـــسطيعها
حـــق علينـــا واجـــب كحقـــوقكم ... مـــن غيركـــم لينيلـــها مـــدفوعها
بدم الحسين صـريع عبرتنـا افتحـوا ... ســـبل اللقـــاء ويـــسّروا توســـيعها
هـل تـشمتون بنـا العـداة وهـم بنـا ... يتربـصون مـــن الخطـــوب قطيعهـــا
ســـأقول بـــين يـــديكم متنـــشدًا ... وأهـــزّ بكّـــة ســـلعها وصـــليعها
إنّـــي لكـــم عبـــد محمـــد صـــالح ... لكـــم الفـــضائل فـــاقبلوا توشـــيعها
حســـن الـختام مديح آل محمـــد ... يـــا طـــوسها وعراقها وبقيعهـــا

مصرية العجم

وهي في ١٠٢ بيت وعنوانها: «القـصيدة العـصماء المـشهورة بمـصرية العجـم في زينـب الكبرى سلام الله عليها مع الإشـارة إلى دار التقريـب والوظـائف الإسـلامية» (ديـوان بستان الأدب).

بـــالمنظر الأعلـــى بـــأفق المغـــرب شمـــس بجلّـــق أو بمـــصر فيثـــرب
مـــن دوحـــة نبويـــة زيتونـــة هي شمس مـشرقها وشمـس المغـرب
بيـــضاء مـــشرقةً يـــشق وميـــضها غـــسق الـــدّجى والمكفهّـــر الغيهـــب
نـورُ الـسّماوات الطّبـاق ومـا بهـا من شمسٍ أو من بدرٍ أو مـن كوكـب
صُـبح تـنفس عـن قـرارة صـدره نفس البتول بـل الوصـيّ بـل الـنبي
شمـس بهـا بحـر العلـوم وفلكهـا المـشحون يجـري بالنَّـسيم الطّيـب
ينمـو بهـا الـشَّجر المقـرّع في الـسّما يـؤتي لهـا أكـلا مِـداد الأحقـب
شمس مـتى تخـرج ضـحاها أفرغـت عن قلـب ذي لبـد ومِقْـوَل أخطـب
فخطابهـا عـين الحيـاة وخطبـة الخُطَبـاء يلفـي عنـدها كالطّحلـب
مـن كـلّ لفـظ كالجمـان المنتقـى وكـــأنجم أنوارهـــا لم تغـــرب
سـحر حـلال يملـك القلـب الـذكيّ وكـلَّ ذي رأي حـصيف منـدبيّ
إن أسمعـــت سحبان وائـــل حيّ أو قُـــسَّ بـــن ساعدة الأيادي يطرب

ويشير إلى قبر السيدة زينب في القاهرة وفي دمشق ويقول:

لا غـــرو إنْ بُنيـــت لهـــا قبـــب بقنطـــرة الـــسبّاع بمـــصر للمتقـــرّب
أو في دمشـــق أو بروضة جدّهـــا أوأمهـــا أم العـــلى والمنصـــب

ثم يثني على دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة ويقول:

لله مـــصر في بنـــاء قبابهـــا ولـــدار تقريـــب لكـــلّ مقـــرّب
أوصوا جميع المـسلمين علـى الأخـا بتلّطـــف وتعطّـــف وتحبّـــبِ
والله يـــؤجرهم ويـــشكر ســـعيهم والـــشّكر حـــقَّ لمـصلح مـــستقربِ
وقـــصيدتي هـــذي تقـــرّب بينـــهم ومـــن اقتـــدى بهـــدى علـــي يقـــرب
فأصـــوله مـــسطورة وفروعـــه مزبـــورة مَـــنْ يتبعْهـــا يُحبَـــب

وهـل اتّفـاق المـسلمين علـى علـيّ فيـــه عـــار أو مـــلام مؤنـــب
ثــق بالعبــاد المــصطفين وبــالأولى صــدقوا وعــرّفهم وفــيهم فارغَــبِ
واعــرف ثقــاتهم وحقّــق أمــرهم ودَعِ الحميـــةَ تبـــقَ للمتعـــصّب
واسكت عن الماضـين واسـتغفر لهـم ثمّ اجتهـــد بتـــدبرّ وتـــدرُّب
واستمــسكن بــالعروة الــوثقى الّــتي هي لا انفصام لهـا وجاهـد وانـصب
ودع الدّسائس والوساوس والمقايس إن ديـــــن الله ليـــس بـــملعب

ويعود يخاطب السيدة زينب بنت علي عليها السلام:

نــاج بفــضلك يــا ملكيــة هاشــم يــا زينــب الكــبرى نجــاح المطلــب
صلّى عليـــك الله أفضـــل كلَّمـــا صلى الملائك موكبـــاً عـن موكب

عينية الشيخ السمناني

وله عينية يعارض فيها عينية ابن سينا يمدح فيها رسول الله(ص) وأهل بيته الكرام وابن سينا من ٦٤ بيتًا منها قوله:

بزغـت إليـك مـن الفـضاء الأوسـعِ شمـــس أشـــعّتها بهـــيُّ المطلـــع
محجوبـــة إلاّ عـــن العـــين الّـــتي في قلـب مـن يـسطاع شـقّ البرقـع
تجـــري كمثـــل ســـفينة درّيـــة نـشرت شُـعاعًا كالـشَّراع المـشرع
بيـــضاء تجلـــو كـــلّ داج غاســـق مـــن كـــلّ ذات ترجُّـــع وتـــصدُّع
شمـس أقامـت في الـسموات العُلـى لتـــدير منظوماتهـــا بتطلُّـــع
أرأيـــت أنّ شموســـها وبـــدورها ونجومهـــا طلعـــت بغـــير مطلَّـــع
إذ لـــيس ربّ العـــالمين مباشـــرًا قبـــل ابتـــداع الأصـــل للمتقـــرِّع
والله يجـــري الأمـــر مـــن أســـبابه أكـرم بـذا الـسَّبب البـديع المبـدع
لابُـدَّ مـن سـبب يكـون خزانـةً للكـــلِّ يـــأمره الـــصَّنيع أن اصـــنع

لــولاه لاحتــرق الفــضاء وأهلــهُ ... مــن نــور طــور وجــوده المتشعــشع
هــذا محمــد الــنبي المــصطفى ... قبــل اصــطناعة كــائن أو مــصنع
فــردًا بــلا كفــو تخيَّــره الحكــيم ... مــتى يقــلْ يــسمعْ ويــأمرْ يــصدعِ
والله خمَّــر ذاتــه بعلومــه ... لبيوتهــا المعمــور والمتــوزِّع
لا شــيء يــسبقه ويَلحَــقُ صُــقعهُ ... كــلا ولا في قــدره مــن مَطمَــع
بلــغ العلــى بكمالــه كــشف الــدُّجى ... بجمالــه في الأقــتم المتــسفِّع
حــسنت جميــع خــصاله صــلُّوا ... عليــه وآلــه الغــرِّ الــسجود الرُّكَّــع
إنّ النفــوس لهــا مرايــا قــد أرتْ ... ممــا بهــا قَــدْرَ اقتــضاء الطِيّــعِ
بــك يــابن ســينا يفخــر العلمــاء إذ ... عُلّمــت مجتهــدًا ولــست بــامَّع
فجــزاك ربُّــك عــن نبيّــك خــيرَهُ ... بــك ركــن ديــن الله لم يتضعــضع
إنّــي أعيــذ المــسلمين جمــيعهم ... بــالله مــن ســوء اللقــا والمرجــع
يــا ربِّ صــلِّ علــى الــنَّبي وآلــه ... وإلــيهم كلمــي بطيبــك فــارفع
واغفــر بحقِّهــم ذنــوبي كلَّهــا ... يا ربِّ وانعــش ضــرعتي في المــصرع
وأقــرَّ عــيني يــوم ألقــى جمعهــم ... وأملأ بنــورك يــوم أدفــن مــضجعي
حمــدًا لأنعمــك الــتي لم أحــصها ... زدني ومــا عــوّدتني لا تقطــع
فجعلــتني في عجمــتي ذا مقــول ... ذرب بليــغ رايــع ومــروِّع
عبــد محمــد صــالح لــك خاضــع ... مــن ولــد فــضل الله شــيخي الأبــرع
مازنــدراني بفــضلك مُعْــربٌ ... فلنعمــةِ الإعــراب شــكري أوزع
بالله مُفتتــح ومُختتــم بــه ... بالحمــد ربِّــي آخــر الــدَّعوى دُعــى

مدح القاسم بن الحسن

في هذه القصيدة ركز على شاب يافع من آل بيت رسول الله هو القاسم بــن الحــسن

بن علي بن أبي طالب. رافق عمّه الحسين في كربلاء، وأبى إلاّ أن يتوّج بوسام الشهادة يوم عاشوراء سنة ٦١هـ .

لله ذو القِسَم الجزيل القاسمُ ... فله لدى الهيجاء ثغر باسم
بلغ العلا بكماله كشف الدُّجى ... بدما الكماة على البسيطة راسم
عند اللّقاء تدكّ من ضرباته ... للأدعياء جناجن وجماجم
ويخوض في الجيش العرمرم للعِدا ... يهتزُّ في يده الحسام الحاسم
أو كان توحيد الإله فكامل ... أو مجد إسلام ففيه دعائم
أو حرب جبت فالقواضب يقظةٌ ... أو عقد سلم فالمهنّد نائم
قتل العدا في عنفوان شبابه ... وغضاضة الغصن الّذي هو ناعم
في كلّ عضو منه ليث باسلٌ ... فله الليّوث أنامل ومعاصم
قد جاء ينصح أغبياء القوم من ... للنّاصحين مقاتل ومخاصم
أكلو الحرام به نمت أعضاؤهم ... فالكلّ رجسّ للخبائث طاعم
حمل الحُسينُ بصدره النْعش الّذي ... هو بالرّماح وبالظّبا متقاسم
تبًّا لهم في قتل نجل المجتبى ... في النّار تلقم قاتليه قشاعم

شاعرية السمناني

ذكرنا أن الشيخ السمناني يمتاز بطول النفس في شعره مع استعمال الألفاظ الفخمة. وشعره ـ وإن اقتصر على التوجّه الديني ـ فيه ابتكار للمعاني وخيال لا بأس به، وفيه أيضًا موسيقى عذبة لا يخرج فيها عن عروض الشعر العربي ولا يميل إلى زحافاته.

أراد من خلال شاعريته أن يخاطب الشعور العربي ليهزّ بذلك جدران الفواصل القومية، وليقدّم نموذج الإنسان المسلم غير العربي الذي ينشدّ بالعربية ويُنشِدُ بها.

نحن طبعًا اقتصرنا في هذا المقال على ما هو واضح بيّن لا يحتاج إلى شرح من

الأبيات، لكنّ قصائده الطويلة توضّح إلمامه بلغة الشعر القديم وأساليب التعبير الأدبية القريبة من روح الشعر الجاهلي والأموي. كما أنّ تأثره بشعر سعدي الشيرازي العربي واضح أيضًا.

وأراد أيضًا من خلال شاعريته أن يعرب عن ارتباطه برسول الله، وعن عواطفه تجاه النبي الخاتم ليركز على أكبر مشترك في حياة المسلمين بعد القرآن، وهو رسول الله(ص)، كما قدّم آل بيت رسول الله في شعره باعتبارهم امتدادًا لرسول الله، وهو بذلك خاطب الوجدان السنّي على لسان أديب شيعي ليقول إن المشترك بيننا كثير، وساحة رسول الله وآل بيته تسع المسلمين جميعًا على اختلاف مذاهبهم.

مصادر دراسة العلامة السمناني

١ – نقباء البشر، الشيخ آقا بزرك الطهراني
٢- العبقري الحسان، لآية الله النهاوندي (فارسي)
٣- الوحدة الإسلامية، الدكتور بي آزار شيرازي
٤- تذكرة الشعراء، آية الله إمامي كاشاني (فارسي)
٥- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني
٦- عارف وصوفي چه مي‌گويد = ماذا يقول العارف والصوفي (فارسي) ميرزا آقا جواد طهراني
٧- معراج المشتاقين، سيد عزيز الله إمامي كاشاني (فارسي)
٨- معراج الذاكرين، سيد عزيز الله إمامي كاشاني (فارسي)
٩- گفتگوي شيعه وسني = حوار الشيعي والسني (فارسي) سيد عزيز الله إمامي كاشاني.
١٠- دانشمندان رجال مازندران = علماء رجال مازندران، للمهجوري

١١- خزائن الأدب (فارسي) غلامحسين سنجري

١٢- عقل سرخ = العقل الأحمر، محمد رضاحكيمي

١٣- ديوان الأدب، العلامة السمناني، بمقدمة الأستاذ عماد زاده

١٤- بستان الأدب، العلامة السمناني

١٥- تحقيق در احوال وآثار أدبي حكيم وشاعر ذو اللسانين شيخ محمد صالح الحائري المازندراني، محمد معصومي شوب، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة آزاد إسلامي (بالفارسية).

١٦- مجلة رسالة الإسلام، الصادرة عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، الاعداد ١ – ٤.